

مقابس من كتاب معجم الأرباء

لياقوت

للمؤلف عبد الخالق عمر

الأستاذ بدار العلوم

أقول مقابس وأخالف القائلين : مقتبسات ، ذلك أنهم يقولون : ما جرى على اسمي الفاعل والمفعول مما بدى بيمين زائدة فقياسه التصحيح للمذكر إن كان عاقلاً وللمؤنث إن كان غير عاقل ، واستثنوا من ذلك ما جاء من كلام العرب مكسراً مثل : ميمون ومشثوم وميسور ، إلى ذلك مما يكون سبع كلمات أو يزيد ، ولست أدري وربك ما هذا التحكم الصرفي بمد أن جاء هذا العدد مجموعاً جمع تكسير ، وربما قالوا : إنه جاء في الشعر والضرورة أساغته ؛ ولكن مراضع جاءت في كتاب الله الكريم ، وجاء في منشور العرب مطالبق ، وإذن فلا ضرورة لهذا الفرض الصرفي ، وبهذه المناسبة أستطرد لذكر أفعال إذا أسندت دلت على قيام الحدث بالسند إليه من غير عمل منه ولا تأثير له في غيره مثل : اخضر وما مثلها من أفعال الألوان ومثل : غص وشل وشرق فأقول : إن مثل هذه الأفعال ليس لنا أن نبنيها للمفعول فإن وجودها في الفاعل لم يكن من غيره ، ومثل هذا فاعل اصطلاحاً لا حقيقة ، والبناء للمفعول يقتضى مؤثراً في المفعول ، وهذه لا مفعول لها تقتضيه فأولى بنا أن نجعلها في كل استعمال لها مبنية للفاعل إلا إذا كانت متعدية . ولعل مصيب فيما قلت والله أعلم بالصواب

رجوع القول الى معجم الأرباء

كنت أسلفت القول في ذكر طائفة من الشذاذ في اللغة المتعمرين فيها ، وهاتذا أتبعه بذكر أمثلة أخرى وأبتدى بذكر :

أحمد بن محمد بن ثواب

أحمد بن محمد بن ثواب بن خالد الكاتب أبو العباس ، قال محمد بن إسحق النديم : هو أحمد بن محمد بن ثواب بن يونس أبو العباس الكاتب ، أصلهم نصارى ، وقيل إن يونس يعرف بلبابة وكان حجاجاً ، وقيل : أهم لبابة ، ومات أبو العباس سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقال الصولي : مات في سنة ثلاث وسبعين ، قال : وحدثني أبو سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاذ قال : كان بين علي بن الحسين وبين أبي العباس بن ثواب منازعة في ضيعة فاجتمعا في مجلس بعض الرؤساء وأحسبه عبيد الله بن سليمان ، فردد علي بن الحسين مناظرة أبي العباس إلى أخيه أبي القاسم ابن الحسين فناظر أبا العباس فأقبل أبو العباس يهأرّه ويطنزه ^(١) ، وقال في جملة قوله : من أنتم ؟ إنما نفقتم بالبذينة ^(٢) ، قال : فالتفت علي بن الحسين إلى صبي كان معه كأنه الدنيا للقبلة فأخذ يده وقلم قائماً في موضعه وكشف عن رأسه وقال بأعلى صوته : يا مفسد الكتاب قد عرفتوني وهذا ولدي من فلانة بنت فلان الفارسي وهي منى طالق الحرج ^(٣) والسنة على سائر المذاهب إن لم يكن هذا الشرط الذي في أخذعي شرط جده فلان الزين ، لا يكفي عن جد ابن ثواب . قال : فاستخذل أبو العباس ولم يجر جواباً ولا أجرى بعد ذلك كلاماً في الضيعة وسلمها من غير منازعة ولا محاوره

قال : وكان أبو العباس من الثقلاء البغضاء وله كلام مدون مستهجن مستثقل ، منه : عليّ بقاء الورد أغسل في من كلام الخاسم ؛ ومنه : لما رأى أمير المؤمنين الناس قد تدارسوا وتدقلموا وترنسموا وتذودودوا تدسقن ^(٤)

(١) يسخر ويهزأ ، وبابه نصر

(٢) نفقتم : ذاع صيكم ، والبذينة : التشف وسوء الحال

(٣) أي الحرمه

(٤) حاولت جهدي أن أوفق إلى معاني هذه الكلمات وقلبتها على وجوه من النطق ، بفرض أنها ملحقات بالرابعي وبفرض أنها منعوته من كلمتين ، حاولت كل هذا فلم أوفق وما أشبهها بملك الكلمات التي كان بشار يقولها فإذا أخرج وشغل قال : اسم حمار أو جارية عندي

ولابن ثوبة أخبار كثيرة تؤيد ذكره بين أسماء الشذاذ الذين نذكركم، منها ما يرتبط بالألفاظ، ومنها ما يرتبط بالمعاملة؛ ونكتفي بذكر ما ذكرنا، ونأتي على طرف من أخلاقه ومعاملاته نقيين منها ما نريد إثباته له

قال الصولي: كانت بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير وبين العباس أحمد ابن محمد بن ثوبة وحشة شديدة لأسباب، منها أشياء جرت في مجلس صاعد في آخر أيامه، قد حدثني رشيق الموسوي الخادم — وما رأيت خادماً أعقل منه ولا أكتب يداً — قال: كنا في مجلس صاعد فسأل عن رجل، فقال أبو الصقر: قد كان أتي — يريدني — فقال ابن ثوبة: في الخراء. فسمها، فقال أبو الصقر: كيف تكلم من حقه أن يشد ويحد؟ فقال ابن ثوبة: من جهلك، أنك لا تعلم أن من يشد لا يحد، ومن يحد لا يشد. ثم ضرب الدهر من ضربه، فرأيت ابن ثوبة قد دخل إلى أبي الصقر بواسطة، فوقف بين يديه ثم قال: أيها الوزير «لقد آثر الله علينا وإن كنا لخاطئين». فقال له أبو الصقر: «لا تريب عليكم» يا أبا العباس، ثم رفع مجلسه وقلده طساسيج^(١) بابل وسورا وبربما، فضاء فزاد في الدعاء له، فما زال والياً إلى أن توفي في سنة ثلاث وسبعين ومائتين. هكذا ذكر الصولي والأول منقول من كتاب محمد بن إسحاق وهذا أولى بالصواب قال الصولي: وحدثني الحسين بن علي الكاتب قال: كان أبو العيينة في جملة أبي الصقر، قال: وكان يماذي ابن ثوبة لمعاداة أبي الصقر، فاجتمعا في مجلس بمقرب ما جرى بين أبي الصقر وبين ابن ثوبة في مجلس صاعد فتلاحيا، فقال له ابن ثوبة: أما تعرفني؟ قال: بلى أعرفك: ضيق المظن، كثير الوسن، قليل الفطن، خار^(٢) الدقن، قد بلغني تمديك على أبي الصقر؛ وإنما حلم عنك لأنه لم ير عزاً فيدله، ولا علواً فيضعه، ولا حجراً فيهدمه؛ فماف لحك أن يأكله، وسهك^(٣) دمك

(١) الطساسيج (جمع طسوج): الناحية

(٢) خار: من خريخر لوجهه، كناية عن الذل والضعف

(٣) سهك الدم: خبث ريحه

أن يسفك به ، فقال له : اسكت ، فأتساب اثنان إلا غلب الأملهما . قال أبو العيناء :
فلهذا غلبت بالأمس أبا الصقر فأسكته

حدثنا أبو العباس التميمي : حدثنا جحظة في أمالية قال : حضرت مجلس
أبي العباس ثعلب وعنده جماعة من أصحابه وحضر أحمد بن علي المادرائي فسأله عن
أبي العباس بن ثوبة وقال له : متى عهدك به ؟ فقال : لا عهد ولا عقد ولا وفاق
ولا ميثاق ، فقال له ثعلب : عهدي بك إذا غضبت هجوت فهل من شيء ؟ فأنشد

بني ثوبة أنتم أنتم قل الأنم جمعتم ثقل الأوزار والتخم
أهاض حين أراكم من بشامتكم على القلوب وإن لم أوت من بشم^(١)

كم قائل حين غاظته كتابتكم لو شئت يا رب ما علمت بالقلم
فقال ثعلب : أحسنت والله في شعرك وأسأت إلى القوم . وعن أبي الفرج
الأصبهاني حدثني أبو الفضل العباس بن أحمد بن محمد بن ثوبة قال : قدم البحري
النيل على أحمد بن علي الاسكافي مادحاً له فلم يشبهه ثوباً يرضاه بعد أن طالت مدته
عنده فهجاه بقصيدته التي يقول فيها :

ما كسبنا من أحمد بن علي ومن النيل غير حمي النيل^(٢)
وهجاء بقصيدة أخرى أولها :

قصة النيل فاستمعوها محجابه ...

فجمع إلى هجائه إياه هجاء بني ثوبة وبلغ ذلك أبي فبمث إليه بألف درهم
وثياباً ودابة بسرجهما ولجامها فردده وقال : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها
قبول صلتكم ! فكتب إليه أبي : أما الإساءة فمغفورة والمعدرة مشكورة والحسنات
يذهبن السيئات ، وما يأسو جراحك مثل يدك ، وقد رددت إليك ما رددته عليّ
وأضعفته فإن تلافيت ما فرط منك أثبتنا وشكرنا وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا .
فقبل ما بمت به وكتب إليه : كلامك والله أحسن من شعري ، وقد أسلفتني

(١) أهاض : تعترى الهیضة : وهي قيء وكره وإسهال ، وهذا مايسمونه « الكورة » .

بشامتكم : ثقلكم . البشم : التهمة

(٢) النيل (غير نيل مصر) : بجهاث بغداد

ما أخجاني ، وحمّلني ما أتقاني وسيأتيك ثنائي . ثم غدا عليه بقصيدة أولها :
 ضلال لها ! ما ذا أرادت من الصد ؟

وقال فيه بعد ذلك :

برق أضواء المقيق من ضرمه

وقال فيه أيضاً :

إن دعاء داعي الهوى فاجابه

فلم يزل أبي يصله بعد ذلك ، وتتابع بره لديه حتى افترقا
 ولابن ثوابة نثر جيد ، منه : من حق المكاتبة أن يسبقها أنس وينعقد قبلها
 ود ، ولكن الحاجة أعجلت عن ذلك ، فكتبت كتاب من يحسن الظن إلى من يحققه
 ومن فصل له إلى عبيد الله بن سليمان : لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم
 أوت من عدم وسيلة ، وغلة الصادي تأتي له انتظار الورد وتمجل عن تأمل ما بين
 الندير والواد ، ولم أزل أترقب أن يخطرني ياله ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار
 الساري لفجره ، إلى أن برح الخفاء وكشف النطاء وشمّت الأعداء ، وإن في تخافي
 وتقدم المقصرين لآية للتوسمين والحمد لله رب العالمين .

وله توقيع ظريف كتبه في إحدى الرقاع التي قدمت له فقد روى هلال ابن
 المحسن في كتاب الوزراء ما يأتي : حدث علي بن سليمان الأخفش قال : ذكر لي
 المبرد أنه كان في يوم نوبة له عند أبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة حتى دخل عليه
 غلامه ، وفي يده رقعة البحرى فقرأها أبو العباس ووقع فيها توقيعاً خفيفاً وأمر
 بإصلاحها فأصلحت وأعيدت إليه . قال المبرد : فرى بها إلى فاذا فيها :

اسلم أبا العباس وأبقى فلا أزال الله ظلك

وكن الذي يبق لنا ونموت حين نموت قبلك

لى حاجة أرجو لها إحسانك الأوفى وفضلك

والمجد مشروط عليك قضاءها والشرط أملك

فلئن كفيت ملهما فملئها أعددت مثلك

قال : وإذا قد وقع أبو العباس : مقضية والله الذي لا إله إلا هو ، ولو أتلفت

المال وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — : ما شئت منبسطاً ، وثق بما أنا عليه .
لك منبسطاً إن شاء الله تعالى .

هذه طائفة من أخبار ابن ثوبة تنبئ في الجملة عن شيء من حاله التي أشرت إليها ، كما أنها تدلنا على أن له من القول البالغ والنثر العظيم مقداراً يعد به في زمرة الكتاب المدودين .
وكما حدثتنا هذه الشذرات عن هذا فإنها أيضاً تعرفنا أن أناساً كثيرين يحسدونه على هذا النوع من النبوغ ، ويخيل إلى أن خلق المنهجية الذي كان يتمسك به والتطرف في الكلام يفض عنه من حوله ؛ والحق أن الخروج عن المألوف وجفاف الطبع حائل بين الشخص ومجالسيه ، وإن شئت فقل وأقاربه وأهله فإذا انضم إلى ذلك وضاعة نسبه وصغار أصله كانت الطامة ؛ ومن هذا الذي ذكرت يتضح رأي فيه كما يدور في خلدي أنه كاتب أديب فحسب بمعنى أنه بعيد عن الحياة الاجتماعية في عصر يتماظم فيه كل فرد بدراية الأدب والعلوم العربية ولو إلى درجة قليلة وترى هذا يدور في نثرهم ونظمهم وحديثهم فن لم يمانعهم بر نفسه في واد بعيد عن معاشريه ولا يسمعه إذ ذاك إلا أن يظهر بمظهر التكبر على الناس المتعالي عليهم ومن هنا نجى الظنون في الشخص تترى

وقد دعاني إلى كتابة ما سلف أن كثيراً من الناس صفروا من قدره وشوخوا من عقله وجملوه طفلاً لا يبي بما نسبوه إليه من البعد عن أحوال الحياة وصوروه رجلاً مضحكاً لما فيه من بله وجهل فاضحين . وإليك شيئاً مما حدثوا به عن ابن ثوبة ، قال ياقوت : قال أبو حيان في كتاب الوزيرين^(١) : حدثنا أبو بكر الصَّيْمَرِيُّ قال : حدثنا ابن سمكة قال : حدثنا ابن محارب قال : سمعت أحمد بن أبي الطيب يقول : إن صديقاً لابن ثوبة الكاتب أبي العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : إنك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء ، وقرأت أقليدس

(١) الوزيران : ابن عباد وابن العميد

وتدبرته. فقال ابن ثوبة: وما أقليدس ومن هو؟ قال: رجل من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال مختلفة تدل على حقائق الأشياء المألومة والغيبية يشحذ الذهن ويدقق الفهم ويلطف المعرفة ويصفي الحاسة ويثبت الروية (وما زال أبو عبيدة يرغبه حتى خضع لقوله وأحضر له رجلاً اسمه قويرى يعلمه ذلك) قال ابن أبي الطيب: فكنت لابن ثوبة كتاباً أستمع فيه عن الحادث (وهنا ذكر ياقوت كتاب أبي الطيب ورد ابن ثوبة عليه. والرسالة الأولى قصيرة والرد طويل شرح فيه ابن ثوبة حاله مع قويرى النصراني ثم مع آخر مسلم يدعى أبا يحيى ولم أر فائدة كبرى في الإتيان بنصها غير أنى أورد منها شيئاً يجلو لنا موقف ابن ثوبة الذى من أجله رمى بالجهل والنباوة) وذلك عند ما اجتمع به قويرى في المرة الأولى وأبو يحيى في الأخرى

يقول ابن ثوبة في وصف قويرى: فأنانى (الضمير لأبي عبيدة) بشيخ ديراني^(١) شاخص النظر منتشر عصب البصر طويل مشذب^(٢) محزوم الوسط متزمل في مسكة^(٣) فاستعذت بالرحمن إذ زغنى الشيطان... ثم يقول:

قال (يريد قويرى): فأحضرنى دواة وقرطاساً، فأحضرتهما فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهما طرفى كأصغر من حبة الدرة فيزهر^(٤) عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله وأقبل على وقال: أيها الرجل، إن هذه النقطة شيء لا جزء له، فقلت أضللتنى ورب الكعبة؛ وما الشيء الذى لا جزء له؟ فقال: البسيط، فأذهلتنى وحيرنى وكاد يأتى على عقلى لولا أن هدانى ربى لأنه أنانى بلفظ ما سمعتها والله من عربى ولا عجمى، فقلت أنا: وما الشيء البسيط؟ فقال: كالله والنفس، فقلت له: إنك من الملحدين؛ أتضرب بالله الأمثال والله يقول: «فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون»، وأعوذ بالله من الحين وأبرأ إليه منكم وبما تاجدون والله ولى أمير المؤمنين إني برى مما تشركون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ثم قال، فقال لى آخر من

(١) نسبة إلى الدير

(٢) مهذب

(٣) قطعة من جلد

(٤) تكلم بلا صوت

الجالسين أن عندي مسلماً يتقدم أهل هذا العلم ، فقلت أنتي به ، فأناني برجل
 قصير حداح (١) آدم مجدور الوجه أخفش (٢) المينين أجليح (٣) أنطس (٤) سيء النظر
 قبيح الزبي ... إلى أن قال يحدث هذا الجديد المكنى بأبي يحيى : إن النصراني
 نقط نقطة أصغر من سم الحياض وقال لي إنها معقولة كريك الأعلى ، فوالله
 ما عدا فرعون وكفره وإفكه . قال أبو يحيى : إني أعفك من النقطة لعن الله
 قويرى ، وما كان يصنع بالنقطة ؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلني
 ورب الكعبة ، ونازعتني نفسى معالجته بغليظ العقوبة ثم استعطفنى الحلم إلى الأخذ
 بالفضل — وما جئ. لهذا الثانى بما طلب من الأدوات خط خطأ وقال لي غير
 متعاطف إن هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت له :
 قاتلك الله أندرى ما تقول ؟ تعالى صراط ربى المستقيم عن تحطيطك وتشبيهك
 وتحريفك وتضليك إنه لصراط مستقيم وإنه لأحد من السيف وأدق من الشعر
 ثم قال بعد لومه وتأنيه وقذفه بهجر القول : أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة
 ومما تدل عليه وترشد إليه إني برى من الهندسة ومما تسرون وما تعلمون ولبئسما
 سولت لك نفسك أن تكون من خزنتها (جهنم) بل من وقودها وإن لك فيها
 لأنكلا وسلاسل وأغلالا وطعاما ذا غصة — يقول بعد ماسبق : ثم أخذت قرطاساً
 وكتبت بيدي يميناً آليت فيها بكل عهد مؤكد وعقد مردد ويمين ليست لها
 كفرارة أنى لا أنظر فى الهندسة أبداً ، وأكدت بمثل ذلك على عقبي وعقب عقبي
 لا تنظروا فيها ولا تعملوها ما دامت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة
 لميقات يوم معلوم اه بتصرف

قال ياقوت فى آخر ترجمة ابن ثوبة — وفى هذا القول يبدى رأيه فى ابن ثوبة
 متصوراً أن كل ما جاء فى الرسالتين سالفتي الذكر من أوضاع الكاتبين قال :

(١) قصير

(٢) سيء البصر نهراً

(٣) انحسر شعره عن جانبي رأسه

(٤) صفة للأنف الذى ليس دقيقاً

قال عبد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب : لا شك أن أكثر ما في هذه الرسالة مقتعل مزور وما أظن رجلاً مثل ابن ثوبة — وهو بمكانة من العلم بحيث تاقى إليه مقاليد الخلافة ، فيخاطب عنها بلسانه القاصي والداني ، ويرتضيه العقلاء والوزراء بحيث لا يرون له نظيراً في زمانه في براعة لسانه ، تولى كتابة الإنشاء السنين الكثيرة — أن يكون منه هذا كله

ثم قال : فأما ما تقدم من حديث ابن ثوبة فهو غاية في التجلف ، والرجل كان أجل من ذلك ، وإنما أتى إما من جهة أحمد بن أبي الطيب لأنه كان فيلسوفاً ، وكان ابن ثوبة متمجعراً كما ذكرنا ، فأخذ يسخر منه ليضحك الممتضد ، فإن أحمد بن الطيب كان من جلساء الممتضد ؛ وإما أن يكون أبو حيان جرى على عادته في وضع ما أكثر من وضعه من مثل ذلك والله أعلم

عبد الظاهر عمر